من آيات الله

فى رفع السموات بغير عمد

قال الله تعالى فى سورة الرعد: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ** ﴾ [الرعد: ٢].

يذكر علماء التفسير: أنه إذا لم يكن للناس عقول تعقل هذه الآيات التى حملها رسول الإسلام فى الكتاب المبين، أفلا كانت لهم أعين تنظر فى هذا الوجود، الذى أوجده الله سبحانه وتعالى من عدم، وأقامه على هذا النظام البديع.

وإذا لم يكن لهم نظر ينظرون به فى هذا الملكوت، أفليست لهم آذان يسمعون بها هذا النداء الإلهى الذى يناديهم به الحق جل وعلا، ليستيقظوا من نومهم، ولينتبهوا من غفلتهم.. ألا من كانت له أذنان فليسمع.. وألا من كانت له عينان فلينظر.. وألا من كان له قلب فليخشع.

لقد كانت الآية: ﴿ **الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها..** ﴾ لمسة فى مجال الكون الهائل، وهى بذاتها لمسة للوجدان البشرى، وهو يقف أمام هذا المشهد الهائل يتملاه ويدرك أنه ما من أحد يقدرُ على رفعها بلا عَمَدٍ أو حتى بَعَمدٍ إلا الله.

وقصارى ما يرفعه الناس بَعَمدٍ أو بغير عَمَدٍ، تلك البنيان الصغيرة الهزيلة القابعة فى ركن ضيق من الأرض لا تتعداه، ثم يتحدث الناس عما فى تلك البنيان من عظمة، ومن قدرة، ومن إتقان، غافلين عما يشملهم ويعلوهم، من سماوات مرفوعة بغير عَمَدٍ، وعما وراءها من القدرة الحقة، والعظمة الحقة، والإتقان الذى لا يتطاول إليه خيال إنسان.

ففى السموات وفى هذا الملكوت الذى يَقْصِرُ الطرف عنه، ويضيق الخيال عن تصوره، منطلق لجميع العقول، ومسبح لكل المدركات.. وهيهات أن يكون لمن لم يرفع بَصَرَهُ إلى هذا الملكوت، ولم يَسْرَح بخياله، مع شموسه، وأقماره، وكواكبه، ونجومه.

قال تعالى فى سورة آل عمران: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[الأعراف: ١٨٥].

وقال تعالى فى سورة يونس: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[يونس: ١٠١].

وفى سورة لقمان يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [لقمان: ١٠].

فالله سبحانه وتعالى يخبر عن كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه الذى بإذنه وأمره رفع السموات بغير عمد، بل بإذنه وأمره وتسخيره، رفعها عن الأرض بعداً لا تُنَال ولا يُدْرَكُ مداها. فالسماءُ محيطةٌ بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها مرتفعة عليها من كل جانب على السواء.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ [النازعات ٢٧: ٢٨]. والمتأمل فى الآية: ﴿الله الذى رفع السموات بغير عمد﴾ يجد أن القرآن الكريم يمسك بعد هذا العرض العام للعالم العلوى بظاهرتين بارزتين من مظاهر هذا العالم وهما: الشمس والقمر، ففيهما مجال لنظر الناظرين، وتدبر المتدبرين. ذلك أنه إذا غفل الإنسان الغافل الجهول، عن الوقوف على ما فى السموات من آيات بينات تحدث عن قدرة القدير، وحكمة الحكيم، وعليم العليم، فإنه لن يستطيع ولو حاول أن يغمض عينيه عن الشمس

والقمر، اللذين يملآن عليه وجوده وفى هذا يقول: ﴿وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى﴾.

ويقول ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال تعالى فى سورة فصلت: ﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وبعد كل هذا نمضى مع السياق: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الرعد: ٢].

فالسياق يقضى أن يكون الجريان إلى حدود مرسومة، ووفق ناموس مقدر، سواء فى جريانهما فى فلكيهما دورة سنوية، ودورة يومية، أو جريانهما فى مداريهما لا يتعديانه ولا ينحرفان عنه، أو جريانهما إلى الأمد المقدر لهما.

﴿يدبر الأمر﴾ أى يُقدّرُ لكل شئ قدره. كما يقول سبحانه فى سورة الطلاق: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]. والأمر: الأمر كله على هذا النحو من التدبير الذى يسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى.

والذى يمسك بالأفلاك الهائلة، والأجرام السابحة فى الفضاء، فَيُجْرِيَها لأجل لا تتعداه، لا شك عظيم التدبير، جليل التقدير.

ومن تدبير الأمر أنه يفصلُ الآيات، وينظمها وينسقها، ويعرض كلا فى حينه، ولعلته، ولغايته. وذلك لتنكشف الآياتُ للناس، ولتتضح لهم معالم الحق فيها.

﴿لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾ حين ترون الآيات مفصلة، منسقة. ومن ورائها آيات الكون، تلك التى أبدعتها يد الخالق أول مرة، وصورت لكم آيات القرآن ما وراء إبداعها، من تدبير، وتقدير، وإحكام، ولعلكم ترون هذا الوجود فى الآيات المفصلة المبثوثة ما يدعوكم إلى الإيمان بالله، فإذا آمنتم بالله آمنتم بلقائه، وعملتم لهذا اللقاء حسابه، وأيقنتم أنكم مَجْزِيون على ما تعملون من خير أو شر، وذلك من كمال التقدير الذى توحى به حكمة الخلق.

والدلائل كما تدل على وجود الله الحكيم، فهى أيضاً تدل على القول بالحشر لأن من قدر على خلق السموات والأرض، وتسخير الشمس والقمر، فلأن يقدر على الحشر والنشر كان أولى.

يروى أن رجلاً قال لعلىٍّ بن أبى طالب رضى الله عنه: كيف يُحَاسبُ الخلقَ دَفْعةً واحدة؟ فقال علىٌّ رضى الله عنه: كما يرزقهم الآن دَفْعةُ واحدةُ، ويسمع ندائهم، ويجيب دعائهم الآن دفعة واحدة.

ويقول علماء التفسير فى قوله تعالى: ﴿ **لعلكم بلقاء ربكم توقنون** ﴾ بدلاً من قوله [تؤمنون] إشارة إلى أن هذا الإيمان الذى يجئ عن طريق النظر والتأمل فى آيات الله الكونية، هو الإيمان الكامل الذى يصل إلى مرتبة اليقين.

وهذه الآيات دعوة من الله عز وجل للإنسان، ليكشف عن أسرار هذا الكون بما أودعهُ من سلطان العقل، ليعرف جلال الله فى عظمة ملكه، وعظيم قدرته فى إبداع خَلْقِه، وحكمته فى بديع صنعه.

فالله سبحانه وتعالى جعل تدبيره وتفصيل آياته ﴿ **يدبر الأمر يفصل الآيات** ﴾. علامتين تدلان على الرجوع إليه، فمن لم ير فى كمال تدبيره فى خلقه، وفى كمال تفصيله فى آياته، ما يدل على الرجوع إليه، فإنه لم يعرف حكمة التدبير والتفصيل. والتدبير والتفصيل علامتان على اليوم الآخر، فلم يكن التدبير عبثاً، ولم يكن التفصيل عبثاً، بل من أجل أن يعرف الإنسان أنه راجع إلى ربه.

* * *